الردّ على رينان[4]

[صحيفة «لوديبا» ـ الجمعة 18 ماي / أيّار 1883]

سيدي،

أطلعت في العدد الصادر بتاريخ 29 مارس / آذار من صحيفتكم المحترمة على محاضرة حول الإسلام والعلم ألقاها في محفل مرموق السيّد رينان الشهير الذي عمّ صيته الغرب كلّه وبلغ أقاصي البلدان الشرقيّة. ولقد أوحت إليّ هذه المحاضرة ببعض الملاحظات رغبت في تسجيلها في هذه الرسالة متشرّفاً بإرسالها إليكم راجياً أن تلقى قبولاً على أعمدة صحيفتكم.

لقد سعى السيّد رينان إلى توضيح مسألة متعلّقة بتاريخ العرب ظلّت إلى الآن غامضة وإلى إزاحة الستار عن ماضيهم. إلا أن الحقائق التي يقدّمها قد تكدّر من أضمر الاجلال لهذا الشعب الذي لا يمكن أن يتّهم باغتصاب المكانة والرتبة اللتين احتلّهما سابقاً في التاريخ. ولا نظن أن مقصد رينان كان تحطيم مجد العرب الأبدي، بل نراه قد استنفذ جهده لاكتشاف حقيقة تاريخيّة واذاعتها بين من يجهلها أو من كان مهتمّاً بالبحث في أثر الديانات في تاريخ الأمم وبصفة خاصة تاريخ الحضارات. استجّل أولاً أن السيّد رينان قد برع في هذه المهمّة العسيرة بالاستدلال على مسائل كانت خافية إلى حدّ الآن. إني أجد في محاضرته ملاحظات رشيقة ونظرات جديدة

---

(4) عرف نص الردّ بفضل المستشرق لويس ماسينيون الذي قدّمه للآنسة غواشون فنشرته ملحقاً بترجمتها الفرنسية لرسالة الرد على الدهريّين. انظر ص 174 ـ 185.

والملاحظ أننا إحتفظنا في بعض المواضع بترجمة أحمد أمين عندما بدت لنا دقيقة موفية بالمعنى الأصلي.

وروعة يتعذّر وصفها. إلا أني لم أطّلع على هذه المحاضرة إلا من خلال ترجمة تقريبيّة، فلو كنت قادراً على قراءة النصّ الفرنسي لأحطت بأفكار هذا الفيلسوف العظيم بأفضل مما فعلت. فليتقبّل مني تحيّة متواضعة تكون عربون إحترام وتعبيراً صادقاً عن إعجابي. أخيراً أقول له بهذه المناسبة ما كتب منذ قرون المتنبّي ـ وهو شاعر كان يحبّ الفلسفة ـ مادحاً أحد الأمراء:

وذنبي تقصيري وما جئت مادحاً

بذنبي ولكن جئت أسأل أن تعفو

إن محاضرة السيّد رينان تشتمل على نقطتين أساسيتين. لقد إتجه الفيلسوف الألمعي للاستدلال على أن الديانة الإسلامية هي في جوهرها ديانة تناهض تقدّم العلم وعلى أن الأمة العربية في طبعها تبغض الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة. كأن السيّد رينان يقول: إن الفلسفة نبْتة نفيسة ييبس عودها بين أيدي العرب فكأنها تحترق بلفح رياح الصحراء. إلا أن قراءة محاضرته تدفعنا إلى التساؤل فيما إذا كانت هذه العوائق تصدر فقط عن الديانة الإسلامية ذاتها أم عن طرق انتشارها في العالم؟ أكانت متّصلة بطبائع الأمم التي دخلت الإسلام وبأخلاقها وباستعداداتها أم بطبائع أمم حملت على إعتناق الإسلام بالقوّة؟

لا شك أن ضيق الوقت قد حال دون إيضاح هذه المسائل. على أن الداء حاصل وإذا كان عسيراً تحديد أسبابه بدقّة والاستدلال عليها بالبراهين القاطعة فإن الأكثر عسراً هو أن نجد لهذا الداء دواءه الشافي.

فأما عن المسألة الأولى فأقول: لا توجد بين الأمم أمة قادرة منذ نشأتها على اتباع طريق العقل المحض. إن الرعب الذي يخيّم

على كل أمّة ويضعها تحت كلكله يجعلها عاجزة عن التفريق بين الخير والشر وعن إدراك أسباب سعادتها ومصادر شقائها المستمرّ وخيباتها. باختصار، إنها عاجزة عن استجلاء العلل وتبيّن الآثار.

إن هذه الفجوة تجعل مستحيلاً أن تقاد الأمة نحو ما يصلحها من أعمال انقياد اضطرار أم انقياد اختيار أو أن تُمنع عما هو مضرّ بها. لذلك اضطرت الإنسانية أن تبحث خارجها عن موئل للسكينة وملاذ يجد فيه ضميرها المضطرب شيئاً من الراحة. آنذاك برز بين الناس معلّم ما لم يكن قادراً ـ كما ذكرنا ـ على حملها لإتباع إرشاد العقل فرمى بها في متاهات المجهول وفتح أمامها آفاقاً رحبة ترضي فيها خيالها وتجد فيها مجالاً خصباً لآلامها، إذ قد تعذّر عليها الإشباع الكامل لرغباتها.

وبما أن الإنسان كان يجهل في الأول أسباب الحوادث التي تحدث أمامه ويجهل أسرارها، فقد إتجه إلى تسليم أمره إلى معلّميه باتباع إرشادهم والخضوع لأوامرهم. لقد فرضت عليه الطاعة باسم الكائن الأسمى الذي نسب إليه هؤلاء المعلّمون كل الأحداث ومنعوا من أن يجادل في النافع والضارّ. وأنا أسلّم بأن الإنسان قد أخضع بذلك إلى أثقل استعباد وأكثره إهانة. لكن لن ينكر أحد أن ذلك التهذيب الديني، سواءٌ أكان إسلاميّاً أم مسيحياً أم وثنيّاً، هو الذي مكّن كل الأمم من الخروج من حال التوحّش والارتقاء نحو المدنيّة.

وإذا سلّمنا أن الديانة الإسلامية كانت عائقاً أمام تطوّر العلوم فما الذي يدفعنا إلى الجزم بأنه عائق لن يرتفع في يوم ما؟ بماذا تتميّز الديانة الإسلامية عن بقيّة الديانات؟ إن الديانات جميعها تشترك في التعصّب، كل بطريقتها. إن الديانة المسيحية ـ وأقصد بذلك

المجتمع الذي إتبع تعاليمها وتشكلت صورته بحسب مقتضياتها ـ قد خرجت من الطور الأول الذي أشرت إليه وهي تتقدّم حثيثاً على ما يبدو في طريق العلم والتطوّر، بعد أن أصبحت حرّة مستقلّة. أما المجتمع الإسلامي فلم يتحرّر بعد من وصاية الدين. إلا أني كلما تذكّرت أن الديانة المسيحيّة قد سبقت في الظهور الديانة الإسلامية بعدّة قرون، يعتريني الأمل أن الأمة المحمّدية ستحطّم يوماً أغلالها وتتقدّم شامخة في طريق المدنيّة على شاكلة المجتمع الغربي الذي لم تعقه العقيدة المسيحية رغم صرامتها وتعصّبها.

لا، لن أقبل أبداً أن يستثنى الإسلام من هذا الرجاء، إني أدافع هنا، في وجه السيد رينان، لا عن قضية الدين الإسلامي ولكن عن قضيّة بضعة مئات من الملايين من البشر لولا هذا الأمل لاضطروا أن يقبعوا أبداً في التوحّش والجهل.

في الحقيقة، إن الديانة الإسلامية حاولت خنق العلم وإيقاف التطوّر، بذلك نجحت في تعطيل الحركة الفكرية أو الفلسفية وحوّلت العقول عن البحث عن الحقائق العلميّة. لكنّ محاولات كهذه اقترفتها أيضاً ـ على علمي ـ الديانة المسيحيّة، فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبجّلون لم يلقوا أسلحتهم بعدُ كما أعلم، وهم عاكفون على محاربة ما يسمونه التدليس والضلال حرباً ضروساً. إني مدرك لكل المصاعب التي سيجتازها المسلمون لبلوغ نفس الدرجة من المدنيّة طالما هم ممنوعون من اقتحام الحقائق بالطرق الفلسفية والعلمّية. فالمؤمن الحقيقي مدعوّ إلى الإبتعاد عن الدراسات التي تنشد الحقيقة العلمية ـ حقيقة الحقائق، كما يرى البعض في أوروبا ـ. إنه يبدو بصورة الثور المقرون إلى العربة، كذلك هو مقرون إلى العقيدة مستعبد بها مدفوع إلى السير أبداً في السنّة التي

خطّها له الفقهاء. كما إنه مقتنع أن دينه يحتوي كل الأخلاق والعلوم فلا حاجة له بالتطلّع إلى مصدر آخر. لماذا سيرهق نفسه بمحاولات لا جدوى من ورائها؟ لماذا سيبحث عن الحقيقة طالما هو يظنّ أنه يمتلكها كلّها؟ هل سيشعر بالسعادة عندما يفقد الإيمان أو يدرك أن الكمال ليس في الدين الذي يعتنقه؟. لكل هذه الأسباب تراه ينفر من العلم. إني أدرك هذا تماماً، لكنني أدرك أيضاً أن هذا الطفل العربي المسلم الذي رسم لكم السيد رينان هيأته في عبارات قاسية قائلاً إنه سيتحوّل مع تقدّم السن إلى «متعصّب مملوء فخراً أحمق لإمتلاكه ما يظنّه الحقيقة المطلقة»، إن هذا الطفل ينتمي إلى عرق ترك بالغ الأثر عند دخوله التاريخ، ليس فقط بقوة السيف ولكن أيضاً بأعمال باهرة ثريّة تؤكّد ولعه بالعلم، بكل العلوم، بما فيها الفلسفة التي أعترف أنه لم يتحمّلها إلا فترة قصيرة.

أراني مَسُوقاً هنا إلى الحديث حول المسألة الثانية التي تناولها السيد رينان في محاضرته ببراعة واضحة. لا ينكر أحد أن الأمة العربية خرجت من وضع التوحّش الذي كانت عليه وأخذت تسير في طريق التقدّم الذهني والعلمي بسرعة لا تعادلها إلا سرعة الفتوحات، فهي قد استوعبت في ظرف قرن كل العلوم الإغريقية والفارسيّة التي كانت تطوّرت ببطء وطيلة قرون في منشئها الأصلي، تماماً كما أن فتوحاتها امتدت من الجزيرة العربية إلى جبال الهملايا وقمم البرينيه.

ويمكنُ القول إن العلوم تقدمت طوال تلك الفترة تقدّماً مدهشاً عند العرب وفي كل البلدان التي خضعت لسيادتهم. وقد كانت رومة وبيزنطة مَهدَيّ العلوم اللاهوتية والفلسفيّة ومركزيّ أنوار المعارف الإنسانية كلها. لقد دخل اليونان والرومان رحاب التمدّن قبل قرون عديدة فكان لهم الموقع الثابت في ميدان العلم والفلسفة.

ثم جاء وقت توقّف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث وتخلوا عن الدراسة، فتهدّمت النصب التي أقاموها للعلم ودرجت كتبهم القيّمة في طيّ النسيان. وقد كان العرب في وضعهم الأصلي من الجهل والتعصّب حين ورثوا عن الحضارات المتمدنة ما تخلّت عنه وأحيوا العلوم المندثرة ورقوها وخلعوا عليها بهجة لم يسبق لها مثيل، أوَليس هذا دلالة، بل برهاناً، على تعلّقهم الفطري بالعلوم؟

صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أنهم جرّدوا الفرس عمَّا اشتهروا به في العصور القديمة، لكن هذه العلوم التي اغتصبوها بحقّ الفتح قد طوّروها ووسّعوها ووضّحوها وكمّلوها ونسّقوها بذوق كامل ودقّة نادرة.

ثم إن روما وبيزنطة لم تكونا أقرب للعرب ـ وعاصمتهم بغداد ـ من الفرنسيين والألمان والانجليز الذين كان يسيراً عليهم استغلال الكنوز العلمية المطمورة في تلك المدينتين، ولكنهم لم يبذلوا جهداً في سبيل ذلك إلى أن أنارت المدنيّة العربية قمم جبال البرينيه وأشعّت ضياءً وبهاءً على الغرب. صحيح أن الأوروبيين قد استقبلوا أرسطو بعد أن تقمّص الزِّيَّ العربيّ، لكنهم لم يهتمّوا به أبداً عندما كان بين جيرانهم الأغريق. أوَليس هذا برهاناً آخر ناصعاً على تفوّق العرب في الميدان الفكري وتعلقهم الفطري بالفلسفة؟

حقّاً لقد سقطت مجدّداً في الجهل البلدان التي كانت مراكز المعرفة مثل العراق والأندلس، كما أنها أصبحت أوكاراً للتطرّف الديني، لكن لا يمكن أن نستنتج من هذا المشهد (المصير) البائس أن التقدّم العلمي والفلسفي في القرون الوسطى لم يحدث بفضل العرب الذين سادوا آنذاك.

إن السيد رينان يقرّ لهم بذلك على كل حال. إنه يعترف أن

العرب حافظوا قروناً على مركز العلم وطوّروه. هل من رسالة أكثر نبلاً تضطلع بها أمّة! ولكن السيد رينان وان كان يسلّم بأن الأقطار الإسلامية في غضون خمسة قرون من سنة 775 م إلى أواسط القرن الثالث عشر كانت تضمّ علماء ومفكرين عظاماً وأن العالم الإسلامي آنذاك كان يفوق العالم المسيحي في الثقافة الذهنية فهو يقول إن فلاسفة القرون الأولى من الإسلام وكذلك النابغين من رجال الدولة كانوا في الغالب من أصل حرّاني أو اندلسيّ أو فارسي أو كانوا من نصارى الشام. ولست أريد أن أغمط علماء الفرس صفاتهم الباهرة ولا أن أغضّ الطرف عن الدور الجليل الذي اضطلعوا به في العالم العربي، ولكن أرجو أن يسمح لي بأن ألاحظ أن الحرانيين كانوا عرباً وأن العرب لما احتلوا أسبانيا والأندلس لم يفقدوا جنسيتهم وظلّوا عرباً. إن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدّة قرون لغة الحرانيّين، وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة وهي الصابئيّة لا يلغي عنهم الانتماء إلى العرق العربي. كذلك كان رهبان الشام في الغالب من العرب الغسانيّين الذين اعتنقوا المسيحيّة.

أما ابن باجه وابن رشد وابن طفيل فلا يمكن القول إنهم لم يكونوا عرباً عروبة الكندي لأنهم لم ينشأوا في الجزيرة العربيّة ذاتها، خاصة إذا اعتبرنا أن الأجناس البشرية لا تتمايز إلا بلغاتها، فلو ارتفع التمايز باللغة لنسيت الأمم أصولها. إن العرب الذين سخّروا أنفسهم لخدمة الشريعة المحمديّة وكانوا في الآن ذاته رعاة ومحاربين لم يفرضوا لغتهم على المغلوبين بل احتفظوا بها لأنفسهم وكانوا غيورين بها على الغير. لا شك أن الإسلام قد دخل البلدان المفتوحة بالعنف الذي نعرفه ففرض لغته وتقاليده وعقائده فلم تقدر هذه البلدان من التخلّص من نفوذه. إن فارس تمثّل نموذجاً على ما أقول. لكن لعلنا إذا بحثنا في القرون السابقة لظهور الإسلام نجد

بعض علماء فارس على دراية باللغة العربية. نعم، لقد مكنت الفتوحات هذه اللغة من الانتشار بسرعة وأصبح علماء الفرس بعد اعتناقهم الإسلام يفخرون بتحرير كتبهم في لغة القرآن. لا شك أنه لا يحقّ للعرب أن ينسبوا لأنفسهم مجد هؤلاء الكتّاب لكننا نعتقد أنهم لا يحتاجون إلى ذلك إذ بينهم عدد كافي من العلماء والكتاب العظام.

ثم ماذا ستكون النتيجة لو أننا تابعنا العرب منذ انطلاق الفتوحات إلى سيطرتهم على العالم فأقصينا كل أجنبيّ عنهم وعن أحفادهم ولم نعدّ من مزاياهم النفوذ الذي مارسوه على الأذهان والدفع الذي قدّموه للعلم؟ ألسنا مضطرين آنذاك أن نقصر مزايا الفاتحين وخصالهم على حادثة الفتح ذاتها؟ آنذاك سيسترجع كل شعب مغلوب استقلاله المعنوي ويسند لنفسه المجد كلّه فلا يبقى شيء يفتخر به هؤلاء الذين زرعوا الزرع وسقوه.

لو عممنا هذا الأسلوب لقالت إيطاليا لفرنسا إن مازاران ونابليون لا ينتميان إليها أو لطالبت ألمانيا وانجلترا بفخر من رحل من أبنائها إلى فرنسا فبرع في جامعاتها ورفع عالياً مكانتها العلميّة. أما الفرنسيّون فينسبون إلى أنفسهم الأمجاد التي حققها أحفاد الأسر النبيلة التي توزّعت في أوروبا بعد الثورة الفرنسيّة.

فإذا كان الأوروبيّون ينتمون جميعاً إلى نفس العرق، فمن الجائز القول إن الحرّانيين والسوريّين - وهم من الساميّين - ينتمون أيضاً إلى العائلة العربية الكبرى.

إلا أنه يمكن التساؤل كيف انطفأت جذوة الحضارة العربية بعد أن أبهرت العالم بضيائها؟ وكيف ظلّ هذا المشعل منطفئاً وظل العرب غارقين في لجج الظلام؟

ههنا يبدو الدين الإسلامي مسؤولاً، إذ من الواضح أنه إتجه دائماً، إينما حلّ، إلى خنق العلم وأعانه الاستبداد إعانة كبرى على تحقيق مقاصده.

يروي السيوطي أن الخليفة الهادي أعدم في بغداد خمسة آلاف فيلسوف ليطهّر الإسلام من جرثومة العلوم. وإذا سلّمنا أن هذا المؤرّخ قد بالغ في عدد الضحايا فلا مجال للإنكار أن هذه المجزرة قد حدثت وأنها تمثّل لطخة في جبين هذا الدين وفي تاريخ هذه الأمة. لكن أخالني قادراً على أن أجد في ماضي الديانة المسيحيّة حوادث من هذا القبيل. إن الديانات كلها تتشابه مهما تعدّدت أسماؤها ولا مجال أبداً للتوافق أو التوفيق بينها وبين الفلسفة. إن الدين يفرض على الإنسان عقائد تحرّره الفلسفة منها أو من بعضها. كيف يمكن والحال هذا أن يتّفقا؟ عندما دخلت الديانة المسيحيّة اثينا والاسكندرية بأكثر الأساليب تواضعاً وفتنة وكانت هاتان المدينتان ـ على ما هو معلوم بين الجميع ـ المركزين الأساسيين للعلم والفلسفة كانت أولى أعمالها ـ أي المسيحية ـ بعد أن استقرّ قرارها إلغاء العلوم والفلسفة بأن خنقتها ورمت بها بين أدغال المجادلات اللاهوتية، فأصبح ممكناً لها بعد ذلك أن تستدلّ على ما لا يمكن الاستدلال عليه من أسرار التثليث والتجسّد وتحوّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه. تلك السنّة أبداً: في كل مرة يسود الدين فيها فإنه يتجه إلى إلغاء الفلسفة، والعكس صحيح أيضاً عندما تؤول السيادة إلى الفلسفة. ومع استمرار التاريخ الإنساني سيستمرّ الصراع بين العقيدة والنظر الحرّ وبين الدين والفلسفة. إنه صراع شديد أخشى أن لا تكون الغلبة فيه دوماً للنظر الحرّ لأن العقل لا يوافق الجماهير وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة المتنوّرين. والعلم، على ما به من جمال، لا يرضي الإنسانية كل الإرضاء وهي التي تتعطّش إلى

مثل أعلى وتحبّ التحليق في الآفاق المظلمة السحيقة التي لا قِبَلَ للفلاسفة برؤيتها أو ارتيادها.

جمال الدين الأفغاني